

أول الدعاء المعرفة



إِلَّا لَهُمْ ۖ إِنْ نَبِيٍّ أَسْأَلْتُكَ بِرَحْمَتِكَ الْبَتَّى وَسَعَتِ كُلُّ شَيْءٍ، وَبِقُوتِكَ الْبَتَّى
قَهَرْتُ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَخَضَعَتْ لَهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَذَلَّ لَهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَبِجَبَرُوتِكَ
الْبَتَّى غَلَبْتُ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَبِعِزَّتِكَ الْبَتَّى لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ، وَبِعِظَمَتِكَ
الْبَتَّى مَلَأْتُ كُلُّ شَيْءٍ، وَبِسُلْطَانِكَ الْبَتَّى عَلا كُلُّ شَيْءٍ، وَبِرَوْحِكَ الْبَتَّى بَعْدَ
فَنَاءِ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِأَسْمَائِكَ الْبَتَّى مَلَأْتُ أَرْكَانَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِعِلْمِكَ الْبَتَّى
أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَبِنُورِ وَجْهِكَ الْبَتَّى أَضَاءَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ.

المفاهيم المحورية:

1- معرفة المدعو شرط في الاستجابة.

2- من صفات المدعو:

• الرحمة الواسعة.

• القوّة القاهرة.

• الجبروت.

• العلم المحيط.

شرح المفردات:

اللَّهُمَّ: أصلها أَلِه: "الهمزة واللام والهاء أصل واحد؛ وهو: التعبد . فالإله □ تعالى، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه معبود". قال أَبو إِسْحَق: وقال الخليل وسيبويه وجميع النحويين الموثوق بعلمهم: اللهمَّ؛ بمعنى: يا أَ□، وإنَّ الميم المشدّدة عوض من يا... .

أَسْأَلُكَ: أصلها سَأَلَ: "السين والهمزة واللام: كلمة واحدة. يقال: سأل يسأل سؤالاً ومسألة". و"السُّؤَالُ: استدعاء معرفة، أو ما يؤدِّي إلى المعرفة.. والسُّؤَالُ للمعرفة: يكون تارة للاستعلام، وتارة للتّجكيت، مثال الأوّل قوله تعالى: (وَإِذْ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَنَزَّلْنَا مِنْهُ الْحَدِيدَ لِأَعْيُنِنَا فَعَبَّذَ عَلَيْهِمْ الْإِبْرَاهِيمُ) (التكوير/8) مثال الثاني، قوله تعالى: (وَيَسْأَلُ لُجُؤَنَكَ عَنْ رَبِّهِ الرُّوحَ) (الإسراء/85)".

رحمتك: أصلها رَحِمَ: "الراء والحاء والميم: أصل واحد يدلّ على الرّقّة، والعطف، والرأفة". والرَّحْمَةُ: رِقّة تقتضي الإحسان إلى الممرّحوم، وقد تستعمل تارة في الرّقّة المجرّدة، وتارة في الإحسان المجرّد عن الرّقّة، نحو: رَحِمَ □ فلاناً. وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرّد دون الرّقّة... ولا يطلق الرّحمة مَنْ إِلَّا عَلَى □ تعالى من حيث إنّ معناه لا يصحّ إِلَّا لَهُ؛ إذ هو الذي وسع كلّ شيء رَحْمَةً، والرّحيمُ يستعمل في غيره؛ وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة/182)، وقال في صفة النبيّ (ص): (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (التوبة/128).

قال تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْتَكْتَبُوهَا لِلَّذِينَ لَا يَدْرُونَ) (الأعراف/156)؛ تنبيهاً أنّها في الدنيا عامّة للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين.

قهرت: أصلها قَهَرَ: "القاف والهاء والراء: كلمة صحيحة تدلّ على غلبة وعلو. يقال: قهره يقهره قهراً. والفاهر الغالب والقَهْرُ: الغلبة والتّذليل معاً، ويستعمل في كلّ واحد منهما. قال تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) (الأنعام: 18)، وقال: (وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (الرعد/16)، (فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (الأعراف/127).

خضع: أصلها خَضَعَ: "الخاء والصاد والعين: أصلان، أحدهما: تطامن في الشيء. والآخر: جنس من الصوت. فالأوّل: الخضوع. قال الخليل: خضع خضوعاً؛ وهو الذلّ والاستخاء. واختضع فلان؛ أي تذلّل وتناصر".

ذلّ: أصلها ذلّ: "الذال واللام في التضعيف والمطابقة: أصل واحد يدلّ على الخضوع والاستكانة واللين. فالذلّ: ضدّ العزّ". و"الذّلّ": ما كان عن قهر... وقوله تعالى: (وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ) (الإسراء/24)؛ أي: كن كالمقهور لهما... والذّلّ متى كان من جهة الإنسان نفسه لنفسه؛ فمحمود، نحو قوله تعالى: (أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (المائدة/54).

جبروتك: أصلها جَبَرَ: "الجيم والباء والراء: أصل واحد؛ وهو: جنس من العظمة والعلو والاستقامة... وذو الجبروت: الجَلّ ثناؤه". والجبرّار في صفة الإنسان، يقال: لمن يجبر نقيصته بادّعاء منزلة من العالي لا يستحقها".

عزّتك: أصلها عزّ: "العين والزاء: أصل صحيح واحد يدلّ على شدّة وقوّة وما ضاهاهما من غلبة وقهر. قال الخليل: العزة جَلّ ثناؤه؛ وهو من العزيز". و"العزّة": حالة مانعة للإنسان من أن يغلب. من قولهم: أرضٌ عزّازة؛ أي: صُلابة. قال تعالى: (أَيَّدْتَهُ بِقُوَّةٍ عِنْدَ هُومِ الْعِزَّةِ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (النساء: 139)... والعزيز: الذي يقهر ولا يقهر. قال تعالى: (إِنََّّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (العنكبوت/26).

سلطانك: أصلها سَلَطَ: "السين واللام والطاء: أصل واحد؛ وهو: القوّة والقهر، من ذلك: السلاطة؛ من التسلّط؛ وهو القهر. ولذلك سمّي السلطان سلطاناً. والسلطان الحجّة".

أحاط: أصلها حوط: "الحاء والواو والطاء: كلمة واحدة؛ وهي الشيء يطيف بالشيء... والإحاطة بالشيء

علماء؛ هي: أن تعلم وجوده وجنسه وقدره وكيفيته، وغرضه المقصود به وبإيجاده، وما يكون به ومنه؛ وذلك ليس إلا لله تعالى، وقال عز وجل: (بَلِّغْ كَذِبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) (يونس/39)، فنفى ذلك عنهم... وقوله عز وجل: (وَلَا تَدْعُوا أَرْزَاقَهُمْ أَطْعَمَهُمْ) (يونس/22)، فذلك إحاطة بالقدره".

دلالة المقطع:

1- معرفة المدعو شرط في الاستجابة:

إنَّ أوَّلَ شرطٍ للداعي إذا أراد أن يُستجاب دعائه يكمن في معرفته بمن يدعو؛ ولذا، ابتدأت فقرات دعاء كميل ببيان الصفات الإلهية التي تشرع للداعي باب المعرفة بعظمة من يدعو، وتجذبه نحو الطلب من الله تعالى؛ لما أُلهم قلبه من حتمية الإجابة؛ بفعل تعرّضه لنفحات هذه الصفات الكمالية الكاشفة عن عظمة المتّصف بها وقدرته وقوّته. وهذا هو حال مَنْ يطلب حاجة من أحد من الناس؛ فإنّه لا يلجأ إلى الطلب إلا ممّن يعرفه، ويدرك أنّه القادر على استجابة طلبه، وقضاء حاجته.

عن الإمام الصادق (ع): "قال رسول الله (ص): قال الله عز وجل: من سألني؛ وهو يعلم أنّي أضرّ وأنفع؛ استجبت له".

وعن الإمام موسى الكاظم (ع)، قال: "قال قوم للصادق (ع): ندعو فلا يُستجاب لنا، قال: لأنّكم تدعون من لا تعرفونه".

ومعرفة الله تكمن في معرفة صفاته؛ وهي حقائق كمالية تتجلّى في ساحات الكون، ويدركها الإنسان بحسب قابليّته واستعداده ومرتبته الوجودية؛ وهي المذكورة في فقرات هذا الدعاء: الرحمة الواسعة، والقوّة، والقدرة الشاملة، والجبروت، والعزّة، والعظمة، والسلطان، والذات الباقية التي لا تُصاب بالفناء.

2- من صفات المدعو:

أ- الرحمة الواسعة:

إنَّ الدعاء باب من أبواب رحمة الله. والإنسان يتوسَّل بصفة الرحمة الإلهية؛ لتشمله؛ فتكتب له النجاة. ولذا، كان السؤال الأوَّل توسُّلاً بالرحمة الإلهية. والرحمة الإلهية هي كلُّ فيض يفيضه الله تعالى لسدِّ حاجات الموجودات، واستكمال نواقصها، حيث إنَّها بحسب ذاتها فقيرة ومحتاجة إلى الكامل المطلق.

فالرحمة تشمل حياة الإنسان في عالم الدنيا؛ من الولادة إلى آخر لحظات عمره، وكذلك في عالم الآخرة، حيث يُكتَب له النجاة والفوز بالجنَّة؛ عن الإمام زين العابدين (ع) - لمَّا قيل له: إنَّ الحسن البصري قال: ليس العجب ممَّن هلك كيف هلك، وإنَّما العجب ممَّن نجا كيف نجا!. "أنا أقول: ليس العجب ممَّن نجا كيف نجا، وأمَّا العجب ممَّن هلك كيف هلك مع سعة رحمة الله".

وبما أنَّ لكلِّ شيء في هذا الكون سبب مُوصِّل إليه، فإنَّ الوصول إلى رحمة الله يتوقَّف على عدد من الأمور تُعدُّ بمثابة مُوجبات لشمول الرحمة الإلهية، وهي:

- عدم الإفساد في الأرض.
- الدعاء عن خوف أو عن طمع.
- الإيمان بالله والاعتصام به.

وهذه الثلاثة وردت في آيات كتاب الله:

قال تعالى: (وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) (الأعراف/56).

وقال تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِآلِ اللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيَهُمْ إِلَىٰ رِجَالِهِمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) (النساء/175).

الصبر: قال تعالى: (وَلَنَذِيبُ لَكُمْ فِي الْبَاطِلِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْمِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ

صَلَوَاتُ مَنِ رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَدُونَ (البقرة/155-157).

ب- القوّة القاهرة:

إنّ سعة القدرة الإلهيّة جعلت كلّ شيء مقهوراً لها؛ أي لا يملك أمامها حول أو قوّة. ويترتّب على هذا القهر: الخضوع والذلّ.

والخضوع؛ هو: التسليم، وعدم مقاومة سعة القدرة الإلهيّة. ويكمن ذلك من خلال الإيمان بأنّ القدرة الإلهيّة شاملة لكلّ شيء، ولا يمكن الخروج عنها. وهذا التسليم قد يكون عملاً، وقد يكون مع اليقين والطمأنينة بهذه السعة؛ أي عن اعتقاد وإيمان صحيحين.

وهذا يعني أنّ هذا الخضوع قد لا يكون عن اختيار، وقد يكون عن اختيار؛ فكلّ شيء خاضع له. وفي اختيار طاعة الله عزّ وجلّ خضوع اختياري؛ لأنّ الله لم يُجبر أحداً على طاعته. وفي الرضا والتسليم بقضاء الله خضوع اختياري؛ لأنّه لا اعتراض، بل تسليم.

وأما الذلّ فلا يكون عن قهر؛ لأنّ الذي لا يعيش حالة التسليم الاختياري؛ فإنّه -أيضاً- خاضع للقوّة الإلهيّة، ولكنّه مُجبر عليها؛ فيكون ذليلاً.

ج- الجبروت:

ورد في القرآن الكريم أنّ من الأسماء الإلهيّة هو: اسم الجبار. والجبار مبالغة في الذي تنفذ إرادته، ويَجبر على ما يشاء. وهذه الصفة تختصّ بالله عزّ وجلّ. ولذا، ورد عن الإمام علي (ع) - في كتابه لمالك الأشتر حين وّلاه على مصر-: "إيّاك ومساماة الله في عظّمته، والتشبه به في جبروته؛ فإنّ الله يذلّ كلّ جبار، ويهين كلّ مختال".

ويترتّب على الإيمان بأنّ الجبروت لا فقط؛ عدّة فوائد، منها:

- الجبروت: هو صاحب الإرادة الغالبة؛ لأنَّ الإرادة الإلهيَّة تغلب إرادة كلِّ مُريد؛ فهو يتمكَّن في أيِّ لحظة أن يمنع الإنسان من أن يتصرَّف تصرُّفاً في أيِّ أمر من الأمور؛ حتى تلك الأمور الخاضعة له، والتي تقع تحت سيطرته.
- يعني: أنَّ الإنسان قد يشدُّ به الحال، فيريد الخروج عن الإرادة الإلهيَّة، ولكنَّ الإرادة الإلهيَّة غالبية على كلِّ شيء. وهذا حقٌّ إلهي؛ لأنَّ العباد مملوكون ﷻ عزَّ وجلَّ، والمالك له حقُّ التصرُّف في ملكه بما يشاء.
- وصف ﷻ عزَّ وجلَّ نفسه بهذا الاسم في القرآن، كما نلجأ في الدعاء إلى التوسُّل بهذا الاسم الإلهي؛ لأنَّ ذلك يُشعر الإنسان في نفسه الذلَّ والمسكنة لربِّ العزَّة والجلال. فمعرفة ﷻ بصفاته تجعل الإنسان يُحسن اتِّخاذ الموقف في هذه الدنيا.
- من الآثار التربوية المترتبة على التوسُّل بهذه الأسماء: حصول الإيمان الثابت في القلب؛ لأنَّ الإنسان يعلم من خلالها أنَّ الإرادة الإلهية غالبية على كلِّ شيء؛ فإذا استشعر الخطر، أو جاءه عدوٌّ، أو أراد به أحد سوءاً؛ يعلم حينها أنَّ جبروت ﷻ غالب على كلِّ شيء.

د - العلم المحيط:

العلم يعني المعرفة؛ وهو: ضدُّ الجهل. ودليل سعة العلم الإلهي: أنَّ ﷻ هو الخالق؛ فلا بدَّ وأن يكون عالماً بكلِّ شيء: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملئ/14).

وفي القرآن الكريم آيتان تتحدَّثان عن سعة العلم الإلهي، هما: قوله تعالى:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

والعلم الإلهي: هو علم إحاطة؛ أي أنّه يُدرِك الأشياء بتمامها، وبكافّة وجوها وجزئياتها، بل وبما ستصير إليه.

والاعتقاد بسعة العلم الإلهي له آثاره على الإنسان في هذه الدنيا، ومن هذه الفوائد:

• الامتناع عن الذنب: إنّ الإيمان بالعلم الإلهي المطلق يُولِّد الشعور بالرقابة الدائمة.

حكّي أنّ بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين؛ فشقّ على الآخرين ذلك، فأراد أن يُظهر لهم فضيلة ذلك المريد، فأعطى كلّ واحد منهم طائراً، وقال له: اذبح هذا حيث لا يراك أحد، فذهبوا، ثمّ جاؤوا قد ذبح كلّ واحد منهم طائره إلا ذلك المريد؛ فإنّه ردّ طائره حيّاً، فقال الشيخ: ما لك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال: لم أجد موضعاً لا يراني فيه أحد؛ فإنّ الله تعالى يراني في كلّ موضع، فقال الشيخ: لهذا أميل إليه؛ لأنّه لا يلتفت إلى غير الله عزّ وجلّ.

• الابتعاد عن التفكير بالمعصية: مع اشتداد الإيمان بالعلم الإلهي يحدث تعظيم هبة الله تعالى في قلب الإنسان، فيصرفه ذلك عن التفكير بالعصيان: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) (غافر/19)، (وَلَنْ تُبَدُّوا مَّا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخْفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ) (البقرة/284)، (إِنَّهُمْ لَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ) (فاطر/28).

• إدراك المظلوم أنّ حقّه لا يضيع: فإنّه، وإن كان قد لا يتمكّن من إثبات حقّه، ولكنّ الله عزّ وجلّ عالم بحقّه؛ فيأخذه له.

• إدراك الظالم أنّّه إن أخفى حقّ غيره في هذه الدنيا؛ فإنّه لن يخفى على الله عزّ وجلّ، وسيأخذه منه في الدنيا أو في الآخرة.

موعظة وعبرة

• موانع استجابة الدعاء:

لقد ذكرت بعض الروايات ذنوباً متعدّدة، إن ارتكبها الإنسان تحول بينه وبين إجابة دعائه، مثل سوء النية، النفاق، تأخير الصلاة عن وقتها، اللسان البذيء الذي يخشاه الناس، الطعام الحرام، وترك الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالى. وفي الاحتجاج، عن الإمام الصادق (ع) أنه سئل: أليس يقول الله: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)؟ وقد نرى المضطّر يدعوه ولا يجاب له، والمظلوم يستنصره على عدوه فلا ينصره! قال: "ويحك! ما يدعوه أحدٌ إلا استجاب له، أمّا الظالم فدعاؤه مردود إلى أن يتوب، وأمّا المحقّ فإذا دعا استجاب له وصرف عنه البلاء من حيث لا يعلمه، أو ادّخر له ثواباً جزيلاً ليوم حاجته إليه، وإن لم يكن الأمر الذي سأل العبد خيراً له إن أعطاه، أمسك عنه".

ما معنى الآيتين؟

ورد عن الإمام الصادق (ع) حينما سأله أحدهم، قال: قلت: آيتان في كتاب الله عز وجلّ أطلبهما فلا أجدهما!

قال عليه السلام: "وما هما؟"

قلت: قول الله عز وجلّ: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)، فندعوه ولا نرى إجابة.

قال (ع): "أفتري الله عز وجلّ أخلف وعده؟"

قلت: لا.

قال: "فممّ ذلك؟"

قلت: لا أدري.

قال (ع): "لكنّي أخبرك، من أطاع الله عز وجلّ فيما أمره من دعائه من جهة الدعاء أجابه".

قلت: وما جهة الدعاء؟

قال: "تبدأ فتحمداً وتذكر نِعَمه عندك، ثمّ تشكره، ثمّ تصلّي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمّ تذكر ذنوبك فتُفِرّ بها، ثمّ تستعيد منها، فهذا جهة الدعاء".